الجزء الخامس

الفصل السادس

وكان ما قدرته سلمى، فلقد تدفّق عليها الزوار ممن تعـرف ومما يريـد التعرف اليها، فلا يمضي يوم بغير ضيوف وبغير هـدايا فتوزعهـا علـى الممرضات والمريضات.. وامتلأ افريز نافذتها بالكتب المهداة اليها، وأوقاتها بأحاديث شيقة طريفة.. وكانت علاقاتها بالمريضات على أحسن وجه يـثقن بها، ويحدثنها بظروفهن وبأعمق مشاعرهن.. ورغم تحزباتهن فيما بيـنهن ومشاغباتهن كانت صديقة الجميع تمر بمساوئ ما ترى مر الكرام، لا تحابي ولا تخطّئ ولا تنتقد وانما تدرس الطباع وتتعلم من ذلك الخليط الإجتمـاعي صورة المجتمع بأفضل مما تعلمها اياه أية جامعة!..

أما من أهلها فلم يكن سوى أبو فراس زائرها المداوم فلا يجد وقـت فـراغ حتى يمتطي دراجته مسرعا اليها محملا بأنواع السكاكر، ويتجاوزها كرمـه الى الصغيرات من المرضى ومن يزاملنها في الغرفة، وما يترك أحدا ممن يقابل يقوى على إمساك نفسه من الضحك لما يهرج وينثر من جعبته الملأى بالنكات والحوادث الطريفة..

وبقيت مشكلة رجاء تقيمها وتقعدها ليال طويلة.. وذات يوم كانت تتنزه فـي حرج الصنوبر والنهار ربيع أفلت من الشتاء، واذا بموزع البريد يسأل عنها ويسلمها دفعة مما يخصها من المعارف عن الأشهر التـي درسـت فيهـا.. ويستطيرها الفرح.. ثم يخبو توهجها.. كيف السبيل الى إرسال ذلك المبلـغ الى رجاء؟

وفي تلك الليلة راحت تفكّر وتقدر.. لقد دبرت مبلغا يكفي لدفعة مـن ابـر الستربتومايسين فأنى لها بتدبير الدفعات كلها؟ وبرمت من التفكير: "سـلمى يكفيك أن تطمئني الآن واتركي قلق الشهور القادمة حتى مجيئها فما يـدريك ما تخبئ لك الأقدار؟"

* * *

أختي الحبيبة رجاء،

وصلتني رسالة من طبيبك الدكتور فضل عاقل عن رئـيس الأطبـاء فـي المصح.. وما أجمل القطعة التي تحدث بها عنك: "ان رجـاء علـى حـال حسنة.. أخلاق سهلة، وعي جميل، وهدوء غير منتظر مـن أمثالهـا.. مـا أجدرها أن تمتّع بالحياة على أكمل وجه".. وأخبرني عن حاجتك الـى إبـر ستربتومايسين وقال بأنها لا تؤذي ان لم تأت بفائدة ملموسة.. حسنا يارجاء، ستوفر لك مهما كان من أمر فلا يشغل بالك من هذه الناحية..

صادفت طبيبا مسافرا الى مصحكم وكان زائرا في دمشق عند أهله وهم من أقاربنا الأبعدين، فرجوته أن يوصل اليك مبلغا من المال حصلت عليه مـن المعارف لتستعيني به في شؤونك..

يا رجاء، أظنني أخبرتك أن ماما وإخوتك سافروا الى اللاذقية، واسـتأجروا بيتا جميلا على تلّة الطابيات تحوطه مناظر رائعة، البحر والبـساتين مـن جهات ثلاثة.. هكذا أخبرني أخي الحبيب عبد الرحمن في رسالة وهو يبحث جاهدا عن عمل..

أما رسالتك للعزيزة سعاد فقد وصلتنا الى دمشق فاستأثرت أنـا بـصورتك الرائعة الوقفة والقسمات، ولن أبعثها لسعاد.. فالشيطانة "سرقت صورك" قبل سفرها ولم أفطن لهذا المكر الاّ بعد فوات الأوان..

يعلم الله كم قبلتها، وكم ذرفت عبرات الحنين الـى صـاحبتها.. صـديقتي الوحيدة في الحياة!..

بي رغبة قوية لأبدأ قصتي الطويلة التي تمـلأ شـغاف قلبـي وتطـاردني شخصياتها في صحوي ونومي.. ولكن المطالب اليوميـة تـشغلني عنهـا وتجذبني الى القصة القصيرة رغما عني فان لم تـسعفني قريحتـي مـلأت البرنامج بقصة قصيرة مترجمة من الأدب العالمي، أو تمثيلية أقتبـسها مـن الكتب التي أقرأها هذه الأيام للأديبة الأمريكية بيرل بك التي عاشـت فـي الصين وأجد في هذه الكتب ما يذكرني بأحوالنا في فلسطين..

أخبريني عن نفسك يا رجاء.. ألا تفكرين يوما بالكتابة؟.. ان أسلوبك وعمق نظراتك وقوة ملاحظتك تبشر بمستقبل أدبـي زاهـر.. سـتفوقينني حتمـا يارجاء.. فتقدمي مني لأطبع قبلة على وجنتيك لهذه الروح السامية المتفائلة.. لقد خجلت والله من نفسي..

الربيع عندنا تفنن في إبراز محاسنه.. ففي الـسماء أغاريـد نـشوى غيـر منظورة تنبثق منذ الشعاعة الأولى للشمس وتهمس لي بارتقاب أخبار حلوة.. أشواق تهزني لأرود العالم العجيب.. لأسرح الى حضن الطبيعة الفاتنة..

طفت بالغوطة مع ثلّة من المعلمات، وأحسست كأنما أعبر حرما مقدسا، وأنا أستجلي بقلب خافق ألف لوحة نضرة يانعة لخالقها الأزلي.. ليتك كنت معي تشاهدينها تميس في بردة الربيع، وتحتفل بعـرس الأشـجار فكلهـا مكللـة بالأزاهير وترمي بنثاراتها على الأرض التي حفلت بزهور المرغريت كمـا ينثر في الأعراس حبات الأرز للخير والبركة.. ومررت بشجر لدن خطّـار نسق في شبه حلقة يقطعها غدير الى هلالين.. وخيل الي أنني أرى قرويات فلسطين جاؤوا من كل ناحية الى القدس وهن يرقصن الدبكة في عيـد مـن أعياد النبي موسى.. وتحيرت في عيني حبات النـدى وأنـا أشـهد عنـاق نهرين.. كانا في خاطري رمزا لتآخي الشعوب التي سكنت المنطقة، ففرقت الصهيونية الآثمة بينها لتشرد شعبا مستقرا على أرضه، ولتملأ الفراغ بشذاذ الآفاق!..

كلّ ما حولي خضر مطلول.. وتراشقنا بالأشعار.. وكنت أشعر رغم فرحي بشوائب وحدة نفسية!..

سلمى

أختي الحبيبة سعاد،

أتكونين على شاطئ البحر وسط الطبيعة الفاتنة، والمناظر الخلابة، وتـدمع عيناك الحلوتان يا سعاد؟ كل ما في الحياة جميل ان أردنا أن نتخيله كذلك.. ابتسمي يا أختي دائما وقولي انني سأتغلب على مصاعبي وانني قادرة علـى التغلب عليها.. فان كنت غير مسرورة في دروسك لأنك لا تنـالين أفـضل

الدرجات فاذكري أن الذنب ليس ذنبك وأنك تدرسين في شهر مـا درسـته رفيقاتك في سنة.. وأن ذكاءك سيجعلك تتفوقين عليهن العام المقبـل ان لـم يكن هذا العام..

وان كنت لست مسرورة من رفيقاتك فاذكري أن الشوك في الوردة لا يمنعنا من محبة الوردة.. واذكري أنك ان بادأتهن المودة كان لك منهن صـديقات كثيرات، وأحببنك وفضلنك عل غيرك.. فأنت الآن غريبة بينهن وسرعان ما يألفنك..

وان كنت في شوق لأختك رجاء، أو خوف عليها، فاذكري أنهـا مـسرورة تذهب في رحلات مع زميلاتها في الفرقة الكشفية وتقول: "شعاري في الحياة الأمل والإبتسام".. وأن هناك اله يرعاها ويحفظها لنا، وأن هناك عقاقير ذات مفعول قوي في هذا المرض عرفت حديثا.. وأن أختك ستعالج بهذه الأبر..

وان كنت في شوق الي فأنا في شوق أكثر اليك ولماما وإخوتي وكثيرا مـا أنزل الى الحديقة وأسمي كل زهرة باسم واحد منكم ولأقبلها صباحا ومـساء كما اعتدت أن أقبلكم..

سيأتي اليوم الذي نجتمع فيه يا سعاد في بيت واحد فلا حال يدوم.. ومع أننا متفرقون اليوم فاننا مجتمعون بالحب الذي يجمعنا.. وهذا خير من أن أكون تحت سقف واحد متفرقي القلوب.. أليس كذلك يا أختي؟

سأبعث برسالة الى معلمتك في القريب العاجل أوصيها بك فلا تبتئسي.. مـا الشيء الذي تريدين أن تهمسي به الي؟ ألا تستطيعين أن تكتبيه لي في رسالة خاصة؟

انني أفكر بكم كثيرا ياسعاد! وخصوصا من ناحيتك وناحية هـشام الحبيـب ومستقبلكما الثقافي.. وآمل يوما أن أبلغ النجاح المرتجى في التأليف لأهـتم بتعليمكما تعليما عاليا..

والآن اصغي لما سأهمسه أنا بأذنك.. "أن تعتني بصحتك وتفعلي كـل مـا يبعث الى نفسك ولماما وإخوتك الإنشراح.. وتكوني لهشام الأخـت المحبـة النصوح.. وتتنزهي كثيرا على شاطئ البحر ففي النزهـات نفـض لغبـار

الهموم ".. انك أيتها الحبيبة في سن الضحك والمرح واللهـو واللعـب فـلا تجدي أكثر من الجد، وكوني كعهدي بك مفراحة ضاحكة السن..
والآن اقتربي مني لأقبل وجنتيك الحلوتين، وأنت بدورك ناثري قبلاتي على وجنات ماما وإخوتي الأحبة..

سلمى

* * *

أختي الحبيبة سلمى،
كم تمنيت لو أكتم عنك زفرتي المحرقة! ولكنني أشعر بما يلهب دماغي وأود لو تغسل الدموع أوجاع قلبي..
لا يزال يعاودني.. يعاودني ذلك الموقف المهين.. فأتمنى لو تبتلعني الأرض وأنسى من الوجود..
لم قبلت؟ لم أذعنت لإلحاح ست هيفا ورضيت أن أذلّ كبريائي؟
حماي ما تغيب.. لقد أطبقت عليّ بكلاّبة.. ورحت أنتظـر دورة الطبيـب الأول في ذلك اليوم والكآبة تمزق صدري.. لا.. لن أفعل هـذا.. ووجـدت نفسي أحيد الى النصيحة حين دخل، وغمزتني ست هيفا مشجعة.. لقد طلبت منه بضعة غرامات ستربتومايسين لتنزيل الحرارة.. لقد فعلت يـا سـلمى.. الحياة غالية.. قبلتها مع الذّل.. فحق لك أن تقبليني وتهنئيني..
نظر الي شزرا وأجابني بلهجة جافة أثلجت أطرافي:
- هذا ليس للفنطزية!
لست أدري ما بان على وجهي، ولكنني رأيت الدكتور فضل يـصر علـى أسنانه، وهو يتريث خلف الأطباء.. أما أنا فلقد شعرت بالـدنيا تميـد بـي وكرهت نفسي كما لم أكرهها من قبل، ودفنت رأسي بالغطاء ورحت أجهش بالبكاء..
"هذا ليس للفنطزية يا رجاء.. انه لمن يدفع ثمنه!.. أما أنت فيجب أن تموتي، ان عز عليك، على أن تنبس شفتاك بذل السؤال"..

واذا بست هيفا تقترب مني تحاول التخفيف عني ورفع الغطاء عن وجهـي المطلول، فأصيح وقد اضطرمت ثائرتي: "أتركيني بحق السماوات!"..
وتهمس لي أن الدكتور فضل أعطاها مظروفا فيه خمسون ليرة لأشتري بها بضعة غرامات للتجربة.. واستدرت وأنا أجذب الغطاء: "لا أريـد شـيئا.. أرجوك!"
وتتركني حتى تهدأ ثائرتي، ثم تعود الي لتقول بـأن الـدكتور يعلـم أننـي سأعيدها اليه حين يصلني مبلغ من المال.. ولقد أبقيتها معي دون أن أنفقها..
وفي اليوم التالي جاءني الدكتور د.الطبيب الأول بدواء جديد هبطـت عليـه حرارتي في اليومين الأول والثاني ولكنها ارتفعت ارتفاعا جنونيا فيما بعـد، وأصبت بصداع في رأسي، واربد وجهي وكدت أفارق الحياة.. انـه ألـم لا أستطيع أن أصفه لك.. ألم شبيه بوجع ضرس ملتهب في كل عـضو مـن أعضاء جسمي..
انهم يجعلون مني حقل تجربة يا أختاه!..
ورآني الدكتور فضل على تلك الحال، فما كان منه الاّ أن قذف بالدواء مـن النافذة، وقال لي ووجهه ساهم: "لا تأخذي شيئا بغير مشورتي.. لماذا لم..؟"
وصمت ففهمت..
ولاحظت عدم رضى الدكتور عن أخذي للإبر ولما سألت الدكتور فضل عن السبب أجابني بأنه يظن أني سآخذ كميات ضئيلة لاتأتي بأي مفعول..
ورفرفت ابتسامة على شفتي.. وخفق أمل بين جوانحي.. وأنت تعلمين مـن هي مصدر الإبتسامة والأمل..
أوصيت الراهبة أن تشتري لي مفكرة لطيفة، وأودعت فيهـا ورقـة ماليـة ولفتها بورقة مكتوب عليها: "مع خالص شكري وتقديري لشخصك الكـريم النبيل" وغيبتها في مظروف وأرسلتها اليه..
لتغمر أفراح الربيع كلّ لحظة من حياتك يا أختاه!..

رجاء

* * *